هذا خلق الله

للإمام أبى حامد الغزالى

من آيات الله فى خلق الحيوان أصنافها: وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى. وانقسام ما يمشى: إلى ما يمشى على رجلين، وإلى ما يمشى على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة. ومن آياته انقسام هذه الحيوانات فى المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع. فانظر إلى طيور الجو، وإلى وحوش البر، وإلى البهائم الأهلية، ترى فيها من العجائب، ولا تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدِّرها وحكمة مصوّرها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك؟

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى، أفترى أنه خلق نفسه بنفسه، أو خلقه إنسان، أو علّمه، أو لا هادى له ولا معلم؟ أفيشك ذو بصيرة فى أن كل مخلوق خلقه الخالق البارئ المصور العظيم؟ أفلا يشهد كل مخلوق بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم؟ فالبصير يرى فى أى حيوان صغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول، فضلاً عن سائر الحيوانات. فالحيوانات كثيرة لا حصر لها، ولكثرتها فإنها تقسم حسب أشكالها وأخلاقها وطباعها وسبحان الخالق العظيم، وإنما سقط تعجب القلوب منها بكثرة المشاهدة؛ ولذا فإن الإنسان إذا رأى حيوانًا غريبًا ولو دودًا تجدّد تعجبه وقال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات، وليس يتعجب من نفسه، بل لو نظر الإنسان إلى الأنعام التى ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسًا لخلقه، وأكنانًا لهم فى ترحالهم وإقامتهم، وجعل جلودها أحذية صونًا لأقدامهم، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب، وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادى والمسافات البعيدة، لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها. فسبحان مَن الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر، ومن غير استعانة بوزير أو مشير؛ فهو العليم الخبير الحكيم القدير. فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته. فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه؟ بل هو كما أثنى على نفسه. وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته. فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته وبمنه ورأفته.